الكتابة الإبداعية: عودة إلى الثابت في زمن الذكاء الاصطناعي

Creative Writing: A Return to the Constant in the Age of Artificial Intelligence



كلفالي سميحة [1] *

[1] جامعة محمد خيضر-بسكرة مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، -الجزائر-

samiha.kalfali@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2025/06/17 تاريخ القبول: 2025/09/02

****

ملخص:

مع التقدم العلمي والتكنولوجي شمل الذكاء الاصطناعي مجالات الحياة المختلفة ومنها مجال الإبداع الأدبي، وفي هذا السياق يأتي هذا البحث ليستعرض ظاهرة الكتابة الإبداعية التي يولدها الذكاء الاصطناعي، انطلاقا من فرضية أساسية مفادها أن هذه الكتابة على الرغم من حداثتها إلا أنها تمثل عودة إلى الثابت أكثر من كونها شكلا من أشكال التحول. يتتبع البحث تحولات الكتابة الإبداعية وصولا إلى الكتابة بواسطة الذكاء الاصطناعي ليخلص إلى أنها كتابة قائمة على المحاكاة والتقليد لا الإبداع الذي أساسه الإحساس والتجربة الذاتية ما يجعلها عودة إلى الثابت لا امتدادا للمتحول في سياق الشعرية العربية.

الكلمات المفتاحية: الكتابة الإبداعية؛ الذكاء الاصطناعي؛ الثابت؛ الحداثة؛ ما بعد الحداثة.

Abstract:

With the rapid advancement of science and technology, artificial intelligence has become involved in many aspects of life—including the domain of literary creativity. Within this context, the present study explores the phenomenon of creative writing produced by artificial intelligence, based on the central premise that, despite its modern nature, such writing reflects a return to the constant rather than a true transformation of literary expression. The study traces the shifts in creative writing over time, leading up to AI-generated texts. It concludes that this form of writing is rooted in imitation and replication, rather than in genuine creativity that emerges from personal feeling and lived experience. As such, AI-generated writing is seen not as an extension of literary innovation, but rather as a return to fixed norms within the broader context of Arabic poetics.

Key words: Creative Writing; Artificial Intelligence; Constant; Modernism; Postmodernism.

* كلفالي سميحة

مقدمة:

يشهد العالم المعاصر ثورة رقمية غير مسبوقة مسّت جميع مناحي الحياة، خاصة مع ظهور الذكاء الاصطناعي الذي غزا حتى المجالات الإنسانية ومنها الأدب، إذ أصبح من الممكن توليد نصوص إبداعية عبر خوارزميات دقيقة تقوم بمحاكاة ما يكتبه الإنسان. ولئن ارتبط الأدب عبر العصور بالتعبير عن الذات الإنسانية بما تحمله من وجدان وخيال وتجربة، فإن دخول الآلة إلى هذا المجال يدعو إلى إعادة النظر في مفهوم الإبداع ومصدره وحدوده.

ظهر الذكاء الاصطناعي في سياق مشروع الحداثة التي بالغت في فرض سلطة العقل وإقصاء الذات، فما لبث أن انتقل إلى مرحلة جديدة هي مرحلة ما بعد الحداثة واكب فيها التحول فأصبح ينتج نصوصا تتفاعل مع الذات وتحاكيها، وفي السياق ذاته أصبح الحديث عن شعرية عربية جديدة تواكب التحول وترفض الثابت الذي مثل الأشكال التقليدية القائمة على وحدة الوزن والقافية وتشابه الصور والأساليب والمواضيع.

واليوم مع ظهور النصوص الشعرية التي ينتجها الذكاء الاصطناعي نجد أنفسنا أمام إشكالية يحاول هذا البحث الإجابة عنها، وهي:

هل تمثل الكتابة الشعرية بواسطة الذكاء الاصطناعي شكلا من أشكال التحول في الشعرية العربية، أم أنها عودة إلى الثابت.

تكمن أهمية هذا الموضوع في راهنيته وارتباطه بمستقبل الإبداع الأدبي في زمن تتسارع فيه التطورات التقنية وتفرض حضورها في جميع المجالات، مما يستدعي الوقوف على الآليات التي يقوم عليها الإبداع الاصطناعي ومقارنته بالإبداع الإنساني الذي قوامه التجربة الذاتية والوعي والإحساس.

ويهدف هذا البحث إلى تحليل هذه الظاهرة من خلال المحاور الآتية:

- رصد العلاقة التاريخية بين الأدب والعلم في الثقافة العربية والإسلامية.
- عرض مفهومي "الثابت" و"المتحول" في الشعرية العربية، وتبع تحولات القصيدة العربية.
- إبراز موقع الكتابة بالذكاء الاصطناعي ضمن هذه التحوّلات.

وبهذا، يسعى البحث إلى المساهمة في النقاش النقدي حول مستقبل الإبداع الأدبي في زمن الذكاء الاصطناعي.

1- الأدب والعلم:

تتسابق الأمم في زماننا الراهن في مجالات العلوم والتكنولوجيا ويغزو الذكاء الاصطناعي مختلف جوانب الحياة التي غلبت فيها التقنية وطغت عليها الآلة، فإذا بنا أكثر حاجة إلى الجانب الإنساني

المصحوب بالقيم والذوق والوعي والعاطفة، وإذا بالأدب يحمل مشعل الإنسانية في زمن الحسابات والمعادلات ليكون الملاذ الذي نستعيد به معنى الحياة وسط صخب الآلة وجفاف المنطق، وهو بهذا لا يعارض التقدم إنما يكمله " فالعلم لغة العقل، والأدب لغة العاطفة، ولابد في هذه الحياة أن يلطف العلم بالأدب والأدب بالعلم، فالعقل إذا جمح استخف بالشعور وجعل الحياة ثمنا للعلم، وهو إذا مزج بشيء من الأدب مسّ الحياة ورفه عن الناس" (أمين، 2011، صفحة 58).

والعلاقة بين الأدب والعلم قديمة فإذا عدنا إلى كتب الأقدمين من علماء العرب والمسلمين ونوابغهم نجد أن منهم من جمع بينهما وسما بهما إلى درجات الخلود، فالخوارزمي في كتاب "الجبر والمقابلة " وضع المادة الرياضية في أسلوب أخّاذ ينم عن أدب رفيع وإحاطة كلية بدقائق اللغة ، ومثله البيروني فالقارئ لكتابه " التفهيم لأوائل صناعة التنجيم " يخرج بثروتين أدبية وعلمية، ويشعر بلذتين لذة الأسلوب الأدبي والمادة العلمية، وما قيل عنهما يقال عن غيرهما من عباقرة العرب إذ بلغ هيام بعضهم في الناحيتين ؛ صياغة القوانين الرياضية والمعادلات العويصة والظواهر الفلكية شعرا، كما فعل كل من ابن الياسمين وابن الهائم اللذين صاغا القواعد الجبرية شعرا (طوقان، 1946، صفحة 112).

وفي الجبر أيضا برز العالم المسلم عمر الخيام، كما برز في الهندسة وعلم الفلك، وتوصل في هذه العلوم إلى حل مسائل مستعصية انبهر بها العلماء في المشرق والمغرب حتى الوقت الحاضر (الدفاع، صفحة 128)، ولم تكن براعته في العلوم فحسب بل كان شاعرا مجيدا أبدع في رباعياته التي عكست رؤية فلسفية وترجمت إلى عدة لغات (أجمع المؤرخون على أن الخيام شاعر لكن أنكر بعضهم أن يكون هو الذي نظم الرباعيات، فقد استطاع المستشرق الروسي زوكوفسكي أن يرد كثيرا منها إلى أصحابها (الدفاع، صفحة 128)).

إلى جانب الرياضيات برز علماء مسلمون وعرب في علوم أخرى حققوا فيها تفوقا وقدموا خدمات جليلة كالطب والفيزياء والكيمياء، بالإضافة إلى مآثرهم في الفلسفة والأدب فمن منا يجهل ابن سينا الفيلسوف الطبيب الشاعر، والكندي والفرابي والرازي وابن الهيثم... وغيرهم ممن صاغ العلم بلغة الأدب.

وإذا مضينا إلى العصر الحديث فإننا نجد كثيرا من علماء العرب يصوغون نظريات العلم وقواعد المعرفة بلغة عربية مبينة وأسلوب رفيع، فهذا علي مصطفى مشرفة أبرز علماء الفيزياء النظرية ومن أوائل علماء العرب اهتماما بالنظريات النسبية حتى سمي بأينشتين العرب (العينين، 2009)، وهو مع ذلك عمود من أعمدة البيان في العصر الحديث فهو الذي " ترجم الأفكار العلمية في شتى مناحي الحياة إلى فقرات أدبية رائعة، فألّف من هذه الفقرات خير دستور عربي يحوي المعالجة العلمية لكل قضايا العصر والمجتمع والحياة" (الجوادي، 1980، صفحة 227).

استطاع مشرفة أن يتخلى عن القوالب الفنية المعتادة والصنعة المبتذلة حتى ضاهى أدباء كبار " أليس الأدب نفسه في معناه الأصلي هو ذلك المعنى الذي تجده في كل ذلك من الدكتور علي مصطفى مشرفة وهو ذات المعنى الذي وجده المؤرخون للحياة العقلية قديماً عند من استحقوا أمارة البيان كالجاحظ وعبد الحميد وابن العميد، إذ وجدوا أدباً عبّر عن المعاني وبعد عن القوالب " (الجوادي، 1980، صفحة 228) .

كتب محمد محمد الجوادي – وهو طبيب - عن علي مصطفى مشرفة بلغة الأديب، وكان قد كتب عن الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكرا وأديبا وهو ما أثار إعجاب الأستاذ مصطفى أمين فكتب له في تقديم كتابه يشيد بصنيعه وزملائه من الأطباء الأدباء يقول : "وشعرت بسعادة أن أرى طبيباً يهوى الأدب فقد عرفت الدكتور سعيد عبدو وهو طالب في كلية الطب يكتب المواويل السياسية في المجلات الكبرى فيتغنى بها الشعب وكأنها أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب، وعرفت الدكتور مصطفى محمود وهو طالب في كلية الطب ومحرراً شاباً في دار أخبار اليوم يشق طريقه في الصخر ويكتب مقالاته الأولى فتثير اهتمام القراء، ولا يتصورون أن هذا الفيلسوف الصغير لا يزال طالباً في كلية الطب، ورأيت الدكتور إبراهيم ناجي وهو يزاحم الشعراء العمالقة ليقف بينهم فيسدّون عليه الطريق، ويحاول ولا ييأس ولكنه يسطع وهو ميت عندما تغني له أم كالثوم الأطلال، وعرفت يوسف إدريس وهو طالب في كلية الطب يكتب القصص وتعلن بداياته عن مقدم قصاص كبير" (الجوادي، 1980، صفحة 11) .

إذا كانت العلاقة بين الأدب والفيزياء أو الأدب والطب قد أثمرت عن نماذج متميزة في العصر الحديث، فإننا نجدها كذلك في مجال الكيمياء؛ إذ يعد الدكتور أحمد زكي أبرز الأمثلة عن العالم الذي برع في تخصصه وتميز عن غيره فيه بأن أبان عن دقائق العلم بلغة الأدب، فهو كما قال عنه إبراهيم مدكور في تأبينه نقلا عن صديقه أحمد أمين: "إنه كيميائي عظيم وأديب كبير مزج بين العلم والأدب كما يمزج السكر والماء، فبينما نراه في معمله بين الأنابيب والمحاليل، نراه في مكتبه يحلل الكلمات ويستخرج المعاني ويصوغ الأفكار" (مدكور، 1972، صفحة 170).

إلى جانب هذه النماذج برزت أسماء أخرى مزجت بين العلم والأدب في العصر الحديث في مجالات مختلفة فمصطفى محمود إلى جانب كونه طبيبا تنزع مؤلفاته إلى التأملات الفلسفية الأدبية، مثل كتابه "رحلة من الشك إلى الإيمان"، ومن الأسماء التي برزت في الفلسفة نذكر زكي نجيب محمود الذي كان له فضل في تبسيط الفلسفة وإشاعة الوعي بإشكالاتها بأسلوبه البليغ الذي ينبض بالعاطفة الصادقة والوضوح الناصع والصور الفنية الحية (.، 1969، صفحة 95) .

وفي الفكر المعاصر، لعبت الفلسفة دورًا مهمًا في تشكيل الوعي النقدي الحديث في العالم العربي، فقد استطاع كثير من الأدباء الفلاسفة الجمع بين عمق الطرح الفلسفي وبلاغة الأسلوب الأدبي، مما

أتاح لأفكارهم انتشارًا أوسع وتأثيرًا أعمق، من بين هؤلاء نذكر عبد الرحمن بدوي ومحمد عابد الجابري وعبد الله العروي وحسن حنفي وجورج طرابيشي وأدونيس ... وغيرهم ممن مثّلوا تيارات فكرية رغم تباينها إلا أنها اتفقت في إعادة قراءتها للتراث العربي الإسلامي والانفتاح على مناهج الحداثة الغربية.

لعب هؤلاء المفكرون دورًا محوريًا في نقد العقل العربي وتفكيك البنى الثقافية التقليدية والدعوة إلى التجديد، مما جعلهم ركائز أساسية في مسار التحديث الثقافي والفكري في العالم العربي المعاصر. وفي هذا السياق، سأقف عند إسهامات واحد من هؤلاء الأدباء الفلاسفة في نقد الحداثة الشعرية العربية – أدونيس -، خاصة ما تعلق ببحثه في مسألة الثابت والمتحول في التجربة الشعرية العربية. إذ لم تكن الحداثة بالنسبة له مجرد انبهار بالشكل أو تقليدا للغربيين، بل كانت مجالًا لصراع فكري وثقافي حول الهوية ومفهوم الشعر ووظيفته.

2- الكتابة الإبداعية من الثابت إلى المتحول:

شهدت القصيدة العربية تحوّلات كبيرة في مسار تطوّرها منذ العصر الجاهلي، حيث ظهرت في شكلها العمودي القائم على وحدة الوزن والقافية وتشابه الموضوعات، واستمرت على هذا النمط حتى العصر العباسي الذي شهد تغييرًا في القيم الاجتماعية والفكرية، فبدأت بوادر حداثة شعرية، إذ أدرك الشاعر ضرورة الارتباط بالحياة والواقع والخروج عن التقاليد المتوارثة، فانفتحت القصيدة على قضايا الفكر والفلسفة وبدأت تتحرّر من عمود الشعر.

ومع بداية العصر الحديث، ظهرت حركات تجديدية دعت إلى تحرّر الشعر وضرورة استجابته لمضامين جديدة، وقد تباينت مظاهر التجديد ومستوياته من مدرسة إلى أخرى حتى حدث انقلاب في حركة الشعرية العربية تمثّل في ظهور شعر التفعيلة أولاً، ثم قصيدة النثر ثانيا.

واليوم نعيش مرحلة جديدة من هذا التحوّل، حيث دخل الذكاء الاصطناعي - الذي غزا مجالات الحياة المختلفة - مجال الإبداع، وأصبح يُستعان به في توليد نصوص شعرية، وهو ما يدفعنا إلى طرح تساؤلات عميقة حول طبيعة هذه الكتابة الاصطناعية، ومدى قبولها، وهل تمثّل فعلاً شكلاً من أشكال التحوّل في الشعرية العربية، أم أنها مجرد عودة إلى الثابت؟.

لذلك، ينبغي أوّلاً أن نُبِين عن المقصود بمفهومي كل من "الثابت "و" المتحوّل" في الشعرية العربية، ليأتي بعد ذلك الحكم على الكتابة الشعرية بواسطة الذكاء الاصطناعي.

عرض أدونيس للثابت والمتحول في كتاب يجمع عنوانه المصطلحين معاً " الثابت والمتحول " جاء في أربعة أجزاء تتبع فيها الشعر العربي في مختلف مراحله، يحددهما بقوله: " أُعَرِّف الثابت في إطار الثقافة العربية بأنه الفكر الذي ينهض على النص، ويتخذ من ثباته حجة لثباته هو فهماً وتقويماً،

ويفرض نفسه بوصفه المعنى الوحيد الصحيح لهذا النص، وبوصفه استناداً إلى ذلك سلطة معرفية. وأُعَرِّف المتحول بأنه إما الفكر الذي ينهض هو أيضاً على النص، لكن بتأويل يجعل النص قابلاً للتكيف مع الواقع وتجدده. وإما أنه الفكر الذي لا يرى في النص أية مرجعية، ويعتمد أساساً على العقل لا على النقل. لكن تاريخياً لم يكن الثابت ثابتاً دائماً، ولم يكن المتحول متحولاً دائماً، وبعضه لم يكن متحولاً في ذاته بقدر ما كان بوصفه معارضاً بشكل أو آخر، وخارج السلطة بشكل أو آخر " (أدونيس، 1994، صفحة 13) .

فالذي يجمع بينهما قيامهما على النص، لكن الأول لا يخرج عن حدوده، فهو يمثل سلطة معرفية وثباتا في النموذج، أما الثاني فسمته التجدد والانفتاح، إذ لا يقبل مرجعية ولا نقلا، ومن الناحية التاريخية فإن كلا منهما لا يرتبط بعصر محدد، وإن كان الأصل في الثابت هو الشعر الجاهلي وكل شعر حافظ على خصائصه متخذا إياه نموذجا في شكله وموضوعاته فهو يقبله ويطمئن له، في حين أن التحول تساؤل وشك إذ لا يرتبط بنموذج ولا مرجعية أو سلطة.

الثابت قبول وعدم خروج عن الأصل يقوم على التقليد، فالأصوات متشابهة والموضوعات واحدة لا تكاد تخرج عن حدود المكان والغزل والبطولة والفروسية ... وغيرها من موضوعات الشعر الجاهلي لذلك فهو شعر شهادة، فالشاعر كشاهد يريد أن يعطي لما يشهد له صورة تطابقه، فغايته لم تكن تغيير العالم أو تخطيه إنما التحدث مع الواقع ووصفه (أدونيس، مقدمة للشعر العربي ، 1979، صفحة 11)، وحين قرر الشاعر التغيير والتخطي حدث التحول، لذلك فهو يتحقق على صعيدين فني واجتماعي، فعلى الصعيد الفني الخروج عن التقاليد المتوارثة في نظم الشعر، وعلى الصعيد الاجتماعي رفض القيم السائدة وإعادة النظر فيها، وبداياته تعود إلى الشعراء المحدثين في العصر العباسي وعلى رأسهم أبو تمام والمتنبي وأبو العلاء المعري لأنهم عبروا عن حداثة مبكرة في تاريخ الشعرية العربية .

ولأن التحول خروج عن الأشكال المتوارثة وكل مظاهر التقليد، فقد أنكره أدونيس على شعر النهضة – إحياء وتجديدا -، حيث سادت ثقافة الارتداد واحتذاء المنوال، فالقاعدة "موجودة مسبقاً لا في اللغة الأصل وإنما في أشكالها التعبيرية الشفوية الأولى، وإذ يصدر الشعر عن قاعدة فإنه يصدر عن ماض ما " (أدونيس، أدونيس : الثابت والمتحول ، ج3 ، 1978، صفحة 144)، وهو لا يرفض الماضي إنما يرفض تقليد أشكال الكتابة التي كانت فيه، لأن الإبداع ينشد الخلق لا الاحتذاء والاجترار، وهو " أن نخرج مما كتبناه من مسافة لحظة مضت، لكي ندخل في مسافة لحظة تأتي، المفكر الكاتب لا يفكر إذن ولا يكتب إلا إذا كتب وفكر بشكل مغاير لما يعرفه، بحيث تكون كتابته وفكره نقطة لقاء بين المعلوم وإيجاب المجهول " (أدونيس، أدونيس : الثابت والمتحول ، ج3 ، 1978، صفحة 312)، فالمبدع لا ينكر ماضيه إنما يجب أن يكتب ويؤسس لما هو مغاير عما كتب فيه منطلقا من المعلوم متطلعا إلى المجهول فيخلق بذلك كتابة جديدة.

ظهرت في الشعر المعاصر كتابات مثلت التغيير الجوهري في القصيدة العربية، وكانت البداية مع نازك الملائكة في نهاية الأربعينيات في مقدمة ديوانها شظايا ورماد، إذ استطاعت أن تؤسس لشكل شعري جديد دعت من خلاله إلى ضرورة التحرر من القواعد الشكلية والعروضية الكلاسيكية، وسار على نهجها مجموعة من الشعراء الرواد كبدر شاكر السياب والبياتي وصلاح عبد الصبور... وغيرهم ممن أسسوا لقصيدة الشعر الحر (شعر التفعيلة)، وسرعان ما ظهرت أصوات نادت بضرورة تجاوزها وطالبت بكتابة قصيدة النثر، باعتبار أنها الأقدر على التحرر والانعتاق والتمرد على التقاليد العروضية واللغوية الكلاسيكية، وأُسقط الوزن كشرط لقيام الشعر، فيمكن أن نسمي النثر شعرا لمجرد أن يشتمل على مضمون معين، وقد تعرض الشعر المنثور إلى هجوم كبير وكانت نازك الملائكة من أشد معارضيه، على أساس أنه لا شعر دون وزن، كما عارضها هي رواد هذه القصيدة - قصيدة النثر-، واعتبروا أن شعر التفعيلة لا يمثل تحولا، وأنها لم تستطع التحرر من قيود الوزن ولا عن نمطية اللغة، ليثبتوا بهذا أن التحول ليس هو نفسه التجديد، إنما هو التجاوز والخلق .

بعد أن عرضنا لمفهوم كل من الثابت والمتحول في الشعرية العربية، يمكننا مناقشة قضية الكتابة الشعرية بواسطة الذكاء الاصطناعي ضمن هذا الإطار:

هل هي امتداد للمتحول لأنها تقدم شكلاً جديداً من أشكال الكتابة الشعرية؟، أم أنها عودة إلى الثابت إذ تعتمد على معطيات محفوظة سلفاً؟.

لذلك يجب تسليط الضوء على الآليات التي يعتمدها الذكاء الاصطناعي في الكتابة الشعرية.

3- العودة إلى الثابت: قمع الإبداع الأدبي بالذكاء الاصطناعي

3-1 الذكاء الاصطناعي من الحداثة إلى ما بعد الحداثة:

ظهر الذكاء الاصطناعي في سياق مشروع الحداثة، إيماناً بقدرة العلم على تفسير العالم عبر الآلة وتقنياتها، فقد كان طموحها محاكاة الذكاء البشري اعتماداً على خوارزميات دقيقة، ونماذج رياضية صارمة، لكنها في سعيها هذا بالغت في فرض سلطة العقل، وأقصت الذات بما تحمله من مشاعر ووجدان، وهو ما جعلها تقع في أزمة عجلت في نهايتها، ومهدت لميلاد عصر جديد هو ما بعد الحداثة.

واكب الذكاء الاصطناعي هذا التحول، إذ لم يعد جامداً ضمن هياكل الحداثة، بل تطور ليواكب الروح الجديدة لما بعد الحداثة فأصبح ينتج نصوصاً تتفاعل مع الذات وتحاكيها.

ترتبط الحداثة في بداياتها الأولى بحركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر Martin Luther سنة 1577، ثم أخذت أبعادا فلسفية في القرنين السابع عشر والثامن عشر مع ولادة التفكير الفردي والعقلاني مع فلاسفة التنوير (وطفة، 2001، صفحة 102)، إذ ارتبط مفهوم الحداثة Modernisme بالعقلنة

(تورين، 1998، صفحة 30)، فعدّ ديكارت René Descartes - أب الحداثة الفلسفية - لأنه حرر العقل من عبوديّة الأنساق الفكريّة، وهمجيّة الأفكار والمعتقدات السائدة، حين أكّد روح البحث العلمي الحر والشك المنهجي الذي يرفض التسليم بالأشياء كما هي، ويدعو إلى التفكير (وطفة، 2001، صفحة 102)، وقد أكد كانط Emamanuel Kant ما ذهب إليه ديكارت حين دعا إلى حريّة العقل وحريّة التفكير، واعتبرهما أساس المدنية والحضارة، وهو يحدّد التنوير بقوله : " خروج الإنسان من حالة الوصاية التي تتمثل في عجزه عن استخدام فكره دون توجيه من غيره " (وطفة، 2001، صفحة 103)، فالتنوير يتقاطع مع الحداثة باعتباره دعوة إلى تحرير الإنسان من أي وصاية .

فالحداثة هي ذلك المفهوم الذي يجعل العقل أداة في خدمة مصلحة الأفراد، وهي سلاح نقدي ضد كافة أشكال السلطة؛ إذ تسعى إلى تحرير الطبيعة البشرية التي سحقتها السلطة الدينيّة (تورين، 1998، صفحة 30)، لذلك فمنشأ الحداثة هو التمرد على سلطة الكنيسة ورفض المعتقدات القائمة.

والحداثة ذات مرجعيّة فلسفيّة أساسها:

الإنسان: مادامت تقوم على التغيير، فلا بدّ أن تبدأ بتغيير الإنسان، إذ لا يمكن له أن يغيّر ما لم يتغيّر.

العقل: باعتباره أساس البحث العلمي، الذي يرفض الخضوع للمسلمات والمعتقدات.

الحريّة: فلا ينبغي للإنسان أن يظل أسير أي سلطة.

وهي الأسس التي انطلق منها كل من كارل ماركس K.Marx وإميل دوركايم E.Durkeim وماكس فيبرM.Weber ، فقد اتفقوا على أن الحداثة تجسد صورة نسق اجتماعي متكامل، وملامح نسق صناعي منظم وآمن، وكلاهما يقوم على أساس العقلانية في مختلف المستويات والاتجاهات (وطفة، 2001، صفحة 95).

إن ارتباط الحداثة بعصر التنوير وبالثورة العلميّة والتكنولوجية عند الغربيين جعلها ترتبط بفكرتين أساسيتين، وهما:

فكرة الثورة ضد التقليد والنمطيّة.

فكرة مركزية العقل.

فهي تأخذ طابع الإبداع والتجديد اعتمادا على الوعي الفردي المستقل؛ إذ تمثل حالة رفض للتصورات القديمة، كما تمثل في الوقت نفسه حالة قطيعة مع الغائية الدينّية التقليدية، فغاية الحداثة بناء مجتمع عقلاني (وطفة، 2001، صفحة 107).

لقد اقترنت الحداثة في المجتمع الأوروبي بالفلسفة وعقيدة التنوير، وحتى تتجسد كان لا بد لها من ثورات، وهي الثورات التي صنفها هشام غصيب في كتابـه "الخطاب الفكري العربي وتحديات الحداثة" إلى ثلاثة أنماط، هي كالآتي:

الثورات السياسيّة البرجوازيّة التي حققت كثيرا من المهمات الديمقراطية لمجتمعات أوروبا الغربيّة: الثورة الهولندية مطلع القرن السابع عشر، الثورة الانجليزية (1641-1988)، الثورة الفرنسية (1789-1815) ...الخ.

الثورات الثقافية الكبرى: النهضة الأوروبية والإصلاح الديني في القرن السادس عشر، والثورة العلميّة الكبرى في القرن السابع عشر، والثورة الفلسفية التنويرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

الثورات الاقتصادية وما صاحبها من توسع جغرافي سواء في أوروبا أو خارجها، خاصة الثورة الصناعية في أوروبا التي جاءت ابتداء من القرن الثامن عشر (الغصيب، 2004، صفحة 94).

فهذه الثورات هي التي جعلت أوروبا تنتقل من مجتمع برجوازي إلى مجتمع ديمقراطي يعلي من شأن العلم الذي أساسه العقل.

قامت الحداثة أساسا للمطالبة بحريّة الإنسان لكنها بالغت في فرض سلطة العقل ؛ أي أنها وجدت من أجل تحرير الإنسان، ولكن في سياق تطورها وضعتـه في عبوديّة جديدة وهي عبوديّة العقلانيّة، وهو ما جعل جان جاك روسو J.J.Rousseau - زعيم النزعة الطبيعيّة- ينتقدها ويبيّن مخاطرها، فهي تفسد الإنسان وتشوه الجانب الإنساني فيه؛ إذ ينظر إلى العقل نظرة جديدة، ويعتبره واسطة بين الإنسان والكون، فروسو يرى أن الحداثة يجب أن لا تقوم على سلطة العقل فحسـب، إنما لا بد من إعلاء سلطة الذات (تورين، 1998، صفحة 45)، وهو ما تنبّه له آلان تورين Alain Touraine ، يقول : "لا توجد حداثة بدون التفاعل المتنامي بين الذات والعقل : بين الضمير والعلم " (تورين، 1998، صفحة 273).

وقعت الحداثة في أزمة عندما أهملت الجانب الذاتي في الإنسان، وعندما فقدت قدرتها على التحرير، يقول تورين : " بقدر ما تنتصر الحداثة بقدر ما تفقد قدرتها على التحرير، إن دعوة التنوير مؤثرة عندما يكون العالم غارقا في الظلام والجهل والعبودية " (تورين، 1998، صفحة 129). فتورين يشير إلى أن عهد الحداثة قد انتهى، فقد أدت دورها في مرحلة ما، ولم تعد صالحة بتغيّر الأوضاع في العالم، وهو ما مهّد لميلاد عصر جديد وهو عصر ما بعد الحداثة ؛ إذ أعلن الفيلسوف الفرنسي جان فرنسوا ليوتار Lyotard نهايتها سنة 1979 في كتابه " الوضع ما بعد الحداثي" "La condition postmoderne "، وذهب يورجين هامبرماس Jurgen Hambrmas إلى أن "الحداثة مشروع لم يكتمل" في مقالة تحمل

هذا العنوان كتبها سنة 1981 (تورين، 1998، صفحة 129)، أما جاك دريدا فيرى أن الحداثة " قد بليت أدواتها وأطيح بها، وثبت أن الغنائم التي نالتها، بعد انهيار العالم القديم الميتافيزيقي قد آلت إلى الوراء وعلاها الصدأ وها هو عهد جديد قد برز : هو عهد ما بعد الحداثة (نجم، 2009، صفحة 08).

فمرحلة ما بعد الحداثة تعدّ محاولة لإثراء الحداثة، وتجاوز الأزمات التي وقعت فيها، خاصة وقد ركزت على إزالة التناقض الحداثي بين الذات والعقل.

إن ما بعد الحداثة مشروع فكري يقدم رؤى مغايرة للعالم، حيث غيرت من القوالب الجاهزة وبعثرت القواعد والقوانين والأنظمة التي تبني الخطابات الفكرية والفنية والعلمية أيضا (ليوتار، 2016، صفحة 08)، فهي انتقال من سلطة العقل إلى اللاعقل ومن اليقين إلى الشك، وقد عكس الذكاء الاصطناعي خاصة في مجال الكتابة التوليدية هذا المنطق، إذ يقدم مقترحات متعددة لا تخضع لتفسير واحد، ومن جهة أخرى دعت ما بعد الحداثة إلى موت الإنسان أو موت المؤلف لتهيئ الذكاء الاصطناعي كبديل عنه.

2-3 محاكاة الأدب بالذكاء الاصطناعي:

غطى استخدام الذكاء الاصطناعي مجالات المعرفة المختلفة ومنها الأدب، فظهر الروبوت الأديب ثمرة لعلاقة الأدب بالتكنولوجيا، و" هو مجموعة من الخوارزميات التي تقوم بجمع مختلف المعلومات دون أي تدخل من البشر حيث تعتمد في ذلك على الخصائص المتواجدة في البرامج الحاسوبية. ما جعل العالم يتجه في يومنا هذا وبقوة إلى ما يعرف بالروبوت الأديب، والذي يستند على تقنيات الذكاء الاصطناعي في إنتاج محتويات أدبية بعيداً عن العامل البشري . وقد أشار كتتسويل إلى أنه مع حلول عام 2040 ربما ستتفوق أجهزة الذكاء الاصطناعي على العقل البشري، على الرغم من أن تلك الآلات الذكية تعاني من القصور" (زواوي، 2024، صفحة 1205) .

وهب الله تعالى الإنسان العقل وميزه به، فامتلك بذلك القدرة على الإدراك دون وسيط، في المقابل تحتاج الآلة لمحاكاة الإدراك البشري إلى شبكة برامج معقدة، ثم إن الكتابة الأدبية تحتاج إلى لغة مكثفة بالدلالات والإيحاءات، ويحتاج فهم النصوص في كثير من الأحيان إلى ربطها بسياقاتها المختلفة، عاطفية كانت أو اجتماعية أو سياسية...، لذلك رأى المفكر تيري فيونوغراد أن الإنسان له "ميزة متفردة تتمثل في التعاطف وفهم السياقات الثقافية المعقدة، وهي ميزة مهمة للعنصر البشري على خوارزميات الذكاء الاصطناعي لإنتاج المحتوى بشكل آلي" **(latar، 2015)**.

إن الإدراك أو الوعي أساسيان لفهم اللغة، وإن امتلكتهما الآلة فلا يمكن أن يماثل ذلك وجودهما عند الإنسان "إذ تأتي اللغة والمعنى على الأقل بالنسبة إلى الإنسان في مرحلة متأخرة من مراحل التطور، يوجد لدى كائنات غير إنسانية إدراكات حسية وأفعال قصدية، إلا أن الإنسان وحده صورة بيولوجية

للقصدية ترتبط باللغة والمعنى" (كافي، 2024، صفحة 716) . ولأن الآلة غير واعية فلا يمكن أن تكوّن أحاسيس، وما الأدب إلا شحنة من الأحاسيس.

إذا تتبعنا مفهوم الأدب عبر العصور لوجدناه قائما على الجانب الإنساني عامة والعاطفي خاصة، ففي العصور القديمة اعتبر أرسطو المأساة وسيلة للتطهير العاطفي، وفي العصور الوسطى غلب عليه الطابع الديني والأخلاقي فلم يتغيّ قيما جمالية إنما قيما روحية وأخلاقية، وبرزت النزعة الإنسانية في عصر النهضة واستعادت الذات حضورها خاصة مع الرومانسية فأصبح الأدب تعبيرا للذات عن المشاعر الفردية بواسطة الخيال بعيدا عن قوالب الكلاسيكية والنزعة العقلية، يقول وليام وردزورث: "الشعر هو انبعاث تلقائي لمشاعر قوية، ينشأ من التأمل الهادئ في العاطفة " **(Wordsworth، 2008، صفحة 21).**

تفاعلت الرومانسية العربية مع الرومانسية الغربية وأعادت إنتاجها في سياقاتها الخاصة لتعبر عن ذات الشاعر العربي، فتمثلت مبادئها في شعر شعرائها وأهمها أن الشعر تعبير عن الذات باعتبار أن المعاني الشعرية هي خواطر الفرد وآراؤه وتجاربه وأحوال نفسه، وأن الشعر من هذا المنطلق – التعبير عن الذات – لا بد أن يغوص إلى ما وراء الظاهر ويتعمق في العالم ومن ثم فهو تعميق للحياة.

في مقابل هذا العمق الإنساني والعاطفي يظهر عجز الذكاء الاصطناعي فمهما تطورت قدراته اللغوية والبلاغية وحتى العروضية ما يمكّنه من توليد النصوص، يظل مفتقرا إلى الإحساس الحقيقي والوعي الذاتي والتجربة الإنسانية وهي عناصر مهمة في العملية الإبداعية.

فالشعر لكي يكون شعرا لا بد أن ينبض بالحياة وأن يولد من تجربة أو يعكس هما أو فرحا أو حبا ...، لهذا فإن ما تكتبه الآلة يبقى مقطوعة بلا إنسان بلا تجربة أو إحساس، فهي تحاكي ولا تبدع تركب ولا تحس لذلك فالإبداع الإنساني ليس مجرد إنتاج إنما هو مشاركة وجدانية، يقول عبد الرحمن شكري:

ألا يا طائر الفردو س إن الشعر وجدان (شكري، 2000، صفحة أ)

فشكري – شاعر النفس الإنسانية – يقترب من طبيعة الفهم الشعري الذي أشاعته جماعة الديوان منذ صدور كتاب الديوان سنة 1921، وهو أن الشعر في جوهره تعبير عن الوجدان وكشف لحالات النفس الإنسانية وهو الفهم الذي في ضوئه وضع هذا البيت في مستهل ديوانه " ضوء الفجر " ليصبح فيما بعد شعارا للجماعة (شكري، صفحة أ).

اتهم الحداثيون كثيرا من الشعراء بالثبات والجمود فقط لأنهم حاكوا نماذج القدماء ولم يتخلوا عن معايير الشعرية القديمة، ولم يوجه هذا الاتهام إلى شعراء الإحياء فحسب بل شمل المجددين على تفاوت تجديدهم حتى نازك الملائكة بدعوى أنها رفضت التخلي عن الوزن، لذلك فإننا لو أقمنا حجة

الحداثيين على نصوص الذكاء الاصطناعي لصح القول إنها نصوص عادت إلى هذا الثابت رغم أنها تكتب في زمن المتحول لأنها تقوم أساسا على المحاكاة.

وها هو واحد من أشهر برامج الذكاء الاصطناعي (ChatGPT) ينفي عن نفسه الإبداع حين يشرح الآليات التي يقوم بها في عملية توليد النصوص الأدبية: " برامج الذكاء الاصطناعي في مجال الكتابة الأدبية تعتمد على المحاكاة، أي تقليد الأنماط والأساليب التي تعلمتها من النصوص السابقة. وهذه المحاكاة تتم على عدّة مستويات، منها:

المحاكاة اللغوية: تُقلّد بنية الجمل، المفردات، التراكيب، وأسلوب التعبير المستعمل في النصوص التي تم تدريبها عليها. فتكتب بلغة تبدو سليمة من الناحية النحوية والبلاغية.

المحاكاة الأسلوبية: تحاول تقليد أسلوب كاتب معيّن أو نوع أدبي معيّن (كالرواية، الشعر، الخاطرة) من حيث الإيقاع، النبرة، وحتى الموضوعات المطروحة.

المحاكاة البنيوية: تُنشئ النصوص وفق قوالب معروفة، كأن تبني قصة وفق عناصر الحبكة الكلاسيكية (عرض – صراع – حل)، أو تولّد قصيدة حسب بحر خليلي معيّن.

المحاكاة الشعورية :وهنا تكمن المفارقة فهي تحاول تقليد المشاعر عبر الكلمات، لكنها لا "تشعر" بها فعليًا، بل تستخدم الكلمات التي يُفترض أنها تعبّر عن الحزن، الفرح، الحب... حسب السياق الذي تعلّمته.

بالتالي، الذكاء الاصطناعي لا يبدع بالمعنى الحقيقي، بل يعيد تركيب ما تعلّمه بصورة جديدة تُشبه الإبداع دون أن تمتلك جوهره الإنساني" **(ChatGpt، 2025)**.

إن الذكاء الاصطناعي على الرغم من قدراته اللغوية يمثل ثابتا يعمل عن طريق المحاكاة والتقليد لا عن طريق الإحساس والتجربة، وهي عناصر جوهرية في العملية الإبداعية، ومن هذا المنطلق يرى بعض النقاد أن الاعتماد الكلي عليه في الكتابة الأدبية، دون تدخل بشري، قد يؤدي إلى إنتاج نصوص نمطية مفرغة من الشحنة الشعورية والخصوصية الفردية، وهو ما يشكل قيدًا جديدًا يُهدد جوهر الإبداع الإنساني الذي يقوم على التفرد والخلق والتجربة الذاتية.

ويرى آخرون أن الذكاء الاصطناعي قد يكون أداة مساعدة تفتح إمكانيات جديدة في الكتابة الإبداعية، خاصة عندما يُستخدم بوصفه وسيطا تقنيًا لا بديلًا عن الإنسان، ففي هذه الحالة لا يحلّ محل التجربة الشعورية بل يدعمها بإعادة صياغة تراكيب لغوية أو تقديم مقترحات تفتح للمبدع أبوابًا جديدة للتعبير.

لذا فإن أثر الذكاء الاصطناعي في الكتابة الإبداعية يظل رهينًا بطريقة استخدامه فإن استُخدم بشكل منفصل عن الوعي البشري، عدّ ثباتا وجمودا، أما إذا استُخدم بوصفه تقنية بيد المبدع، تُسهم في تعزيز النص دون أن تنوب عن صاحبه، فإنه قد يُثري الكتابة الإبداعية دون أن يقمعها.

خاتمة:

حاول هذا البحث مقاربة ظاهرة الكتابة الإبداعية في زمن الذكاء الاصطناعي من زاوية نقدية تستند إلى مفهومي الثابت والمتحول، وذلك في سياق التحولات التي عرفتها الشعرية العربية.

ومن خلال تتبع هذه التحولات والوقوف على آليات توليد النصوص الإبداعية بالذكاء الاصطناعي، تم الوصول إلى جملة من النتائج يمكن عرضها كما يلي:

1- تعتمد الكتابة بواسطة الذكاء الاصطناعي على معطيات سابقة محفوظة، وتُنتج نصوصًا عبر خوارزميات تُعيد تركيب اللغة والمعنى في قوالب مألوفة، مما يجعلها قائمة على المحاكاة والتقليد لا على الإبداع والابتكار.

2- يرتبط الإبداع الأدبي في جوهره بالإحساس، والتجربة، والوعي، وهي عناصر لا يمكن للآلة أن تُجسّدها مهما بلغت قدرتها على محاكاة الأساليب اللغوية والبنى الشكلية للنص.

3- على الرغم من قدرة الذكاء الاصطناعي في إنتاج نصوص متناسقة شكليا وإيقاعيا، إلا أنها لا تحمل سمات التفرد الذي تتميز به النصوص الإبداعية التي يكتبها الإنسان.

4- ظهر الذكاء الاصطناعي في ظل الحداثة وترتبط الكتابة به بروح ما بعد الحداثة التي تمجّد الشك وتعلن "موت المؤلف"، غير أنها في الواقع تُقصي الإنسان بوصفه أساس الإبداع، وتحل محله نموذجًا حسابيًا لا يملك وعيًا ولا موقفًا.

5- رفضت الحداثة الشعرية العربية أشكال الكتابة السابقة واعتبرتها تمثيلا للثابت وطالبت الشعراء بضرورة مواكبة التحول باعتباره لا يقف عند أشكال مسبقة ولا يقبل سلطة أو مرجعا فالإبداع خلق وتجاوز، ولأن الذكاء الاصطناعي لا يتجاوز النماذج السابقة، بل يعيد إنتاجها بتقنيات جديدة، فهو امتداد للثابت وإن بدا ظاهريًا شكلا من أشكال التحول.

وعليه، فإن اعتماد الذكاء الاصطناعي في مجال الإبداع الأدبي لا يمثّل تطورًا في حد ذاته، ويبقى مرهونا بطريقة استخدامه على ألا يتعدى كونه وسيطا تقنيا مساعدا، وإلا سيُهدّد جوهر الإبداع الإنساني القائم على الإحساس والتأمل والتجربة الذاتية، ومن ثم فإن الحاجة تبقى ملحة إلى إعادة التذكير بقيمة الذات المبدعة في زمن تزداد فيه سيطرة الآلة.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب العربية:

- أدونيس .(1978) .: الثابت والمتحول، ج3 . بيروت: دار العودة، ط1.

-أدونيس .(1979) .مقدمة للشعر العربي . بيروت: دار العودة، ط3.

-أدونيس .(1994) .الثابت والمتحول -، ج1 .بيروت: دار الساقي، ط7.

-الجوادي. محمد. محمد .(1980) .مشرفة بين الذرة والذروة .القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

-الدفاع. علي. بن عبد الله .(s.d.) .روائع الحضارة العربية والإسلامية في العلوم، القاهرة: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع

-أبو العينين. عطيات .(2009) .أينشتين العرب علي مشرفة . القاهرة :دار الفاروق للنشر للاستثمارات الثقافية.

-أمين. أحمد .(2011) .فيض الخاطر .المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي

-الغصيب. هشام .(2004) .الخطاب الفكري العربي وتجليات الحداثة . القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

-شكري. عبد الرحمن .(2000) .الديوان . القاهرة: ،المجلس الأعلى للثقافة.

-طوقان. قدري. حافظ .(1946) .بين العلم والأدب .القدس: مكتبة فلسطين العلمية.

-نجم. سهيل .(2009) .في الحداثة وما بعد الحداثة، دراسات وتعريفات، .الأردن: أزمنة للنشر والتوزيع..

الكتب المترجمة:

-تورين. آلان. تر: أنور مغيث .(1998) .نقد الحداثة . القاهرة: الهيئة العامة لمطابع الشؤون الأميريّة.

-ليوتار. جان. فرانسوا .تر: السعيد لبيب .(2016) .في معنى ما بعد الحداثة، نصوص في الفلسفة والفن .الدار البيضاء - المغرب: المركز الثقافي العربي.

المراجع الأجنبية:

-ChatGpt. (2025, 05 02). *ChatGpt .OpenAI*. Récupéré sur http://chat.openai.com

-latar, N. (2015). the robot journalist in the age of social . *publishing .the end OF human journalism ? In:G. Einav*.

-Wordsworth, W. (2008). *Lyrical Ballads.* Oxford : Oxford UP.

المجلات:

-حمبلي .زين. العابدين، زواوي. ،لينا . .(2024) .الذكاء الاصطناعي والإبداع الفني – نحو أدب يصنعه الروبوت .مجلة طبنة للدراسات العلمية التكنولوجي. م 07. ع02

-كافي. فريدة .(2024) .الذكاء الاصطناعي ومشروع ما بعد الإنسان – بين الواقع والمخاوف .مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية .م 12. ع.01.

-مدكور. إبراهيم .(1972) .كلمة الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية في تأبين المرحوم أحمد زكي .مجلة مجمع اللغة العربية ,ج37.

-مكاوي.عبد الغفار. (1969) .في الذكرى الثالثة لرحيل زكي نجيب محمود – حديث معه .- مجلة نزوى.ع08 .

وطفة. علي .(2001) .مقاربات في مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة .مجلة فكر ونقد.102